المحاضرة الثالثة: الاتجاه الليبيرالي (طه حسين)

احتل عميد الأدب العربي طه حسين(1889 ـ 1973) مركز الصدارة في العالم العربي في القرن العشرين، ويرجع ذلك لأسباب عدة لعل أهمها أنه أشرف على مساحات في الوعي العربي ظلت من المسلمات أو المسكوت عنها تحت هيمنة السلطتين السياسية والدينية، وهما تسوغان ما يحفظ مصالحهما البحتة،إضافة إلى قدرة لا حدود لها على المواجهة والمناورة بأسلوب ساحر مشوق يجمع بين عمق الفكرة ونصاعة البيان وقدرة على حشد الأشياع والمريدين.

ـ طه حسين من الانبهار بالآخر إلى العودة للذات:

حاول محمد عمارة من خلال كتابه: **(طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام)** أن يتلمَّس التطوُّرَ الفكري الذي مرَّ به طه حسين على امتداد عمره الفِكري، ويتتبع تلك التطورات، وأيضًا المتناقضات التي مثَّلت مخاضًا فكريًّا طويلًا وعميقًا.

المرحلة الأولى: بداياته الفكريَّة قبل السَّفر إلى فرنسا سنة 1914م. وتكلم فيها محمد عمارة عن تردُّد طه حسين بين مذهب (حزب الأمَّة) ومفكِّره أحمد لطفي السيِّد، الذي يدعو إلى الوطنية المصريَّة الرافضة للعروبة القوميَّة والانتماءِ الحضاري الإسلامي، وبين اتجاه (الحزب الوطني) حزب مصطفى كامل، الذي كان يقوده يومئذٍ بمصر الشيخُ عبد العزيز جاويش، ذو الهوية الإسلاميَّة، والمدافع عن الجامعة الإسلاميَّة، فكان طه حسين في السياسة مع (حزب الأمة)، وفي الفِكر الإسلامي مع (الحزب الوطني).وفي هذه المرحلة يرفض طه حسين العلمانيَّة، بل يذهب إلى ضرورة التزام المسلمين بنشْر الإسلام والتوحيد ومحو الشرك، وعندما يكتُب عن إصلاح أحوال المرأة يُعلن أنَّ معايير هذا الإصلاح هي ثوابت الدِّين.

المرحلة الثانية:المرحلة التي عاد فيها من فرنسا منبهرا بالغرب، والتي امتدَّت لتشمل حِقبة العشرينيَّات من القرن العشرين (1919– 1930)،وهي مرحلة المعارك الفكريَّة الشديدة، كمعركة عَلمنة الإسلام، وعلاقة طه حسين بكتاب (الإسلام وأصول الحُكم) لعلي عبد الرازق، الذي قال فيه طه حسين: " لقد قرأتُ كتاب الشيخ علي (الإسلام وأصول الحكم) قبل طبعه ثلاثَ مرَّات، وعدَّلت

فيه كثيرًا. وقد ذكَر محمد عمارة عددًا من القرائن التي تُحدِّد الجانب الذي أسهم به طه حسين في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، وأنَّه القسم الخاص (بجعل الشريعة الإسلامية رُوحيَّةً محضه، لا علاقة لها بالحُكم والتنفيذ في أمور الدنيا)، ومن هذه القرائنأنَّ الشيخ علي عبد الرازق كان دائمَ الإعلان عن أنَّ هذا الرأي ليس رأيَه، وقد كتب مقالًا تحت عنوان (الاجتهاد في الإسلام) أكَّد فيه أنَّ عبارة (إنَّ رسالة الإسلام رُوحانيَّة فقط) لم تكُن رأيَه يوم نشَر الكتاب، وأنَّها عبارة ألْقاها الشيطان على لسانه. ومن أهمِّ هذه القرائن أنَّ هذه الفكرة، وهذا الرأي هو رأي طه حسين نفْسه في كتاباته في هذه الحِقبة. ومن المعارك الشديدة أيضًا في هذه الحِقبة معركة العدوان على المقدَّسات، التي تمثَّلت في كِتابه (في الشِّعر الجاهلي) المنشور 1926م، وهي معركة مشهورة معروفة، وقد ردَّ عليه كثيرون منهم:الشيخ محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد فريد وجدي.

وقد اعتبر طه حسين في هذه المرحلة أن مصر المستقلة يجب أن تصبح جزءا من أوروبا، إذ بذلك فقط تصبح جزءا من العالم الحديث. حيث يقول في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر):«... أن نمحو من قلوب المصريين، أفرادا و جماعات هذا الوهم الآثم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأوروبي، وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوروبية، ومنحوا عقولا غير العقول الأوروبية... هي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب ».

المرحلة الثالثة: هذه المرحلة التي امتدَّت من بدايات الثلاثينيَّات، وحتى قيام ثورة يوليو سنة 1952، وهي مرحلة الإياب التدريجي، والمخاض الحافل بالتناقُضات لطه حسين (1932–1952) وأهمُّ معالمها خُلوُّ كتاباته من أيَّة إساءة إلى الإسلام، والتوجُّه إلى الكتابة في الإسلاميَّات، فكتب كتابه على (هامش السِّيرة) بأجزائه الثلاثة (1933 ـ 1938)، قدَّم فيه مقالًا في العقل، وفيه دعَا إلى إصلاح العقل بالمعجزة القرآنيَّة التي يفهمها العقلُ فلا يستطيع إنكارها، ويُكْبرها فلا يستطيع عليها تمردًا ولا طغيانًا.ومن أهمِّ معالِم هذه المرحلة كذلك: كلامُه حولَ دعوة الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهاب، وهي كلماتُ ذات وقْع، يجدُر الوقوف عندها، لِمَا نراه من بعض المتمسِّحين بطه حسين

ممَّن ينقُد وينتقد هذه الدعوة، حيث قال في مجلة الهلال، عدد مارس لعام 1933: (إنَّ مذهب محمَّد بن عبد الوهَّاب جديدٌ قديم معًا، جديد بالنسبة للمعاصرين، ولكنَّه قديمٌ في حقيقة الأمر، لأنَّه ليس إلَّا الدعوة القويَّة إلى الإسلام الخالِص النقي المطهَّر من كلِّ شوائب الشرك والوثنيَّة، هو الدعوةُ إلى الإسلام كما جاء به النبيُّ، خالصًا ممَّا أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرَب، فقد أنكر محمد بن عبد الوهَّاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهليَّة في العقيدة والسِّيرة، كانوا يُعظِّمون القبورَ ويتَّخذون الموتى شفعاءَ، ويُعظِّمون الأشجارَ والأحجار ويرَون أنَّ لها من القوة ما ينفع وما يضرُّ).

وكذلك في هذه الحِقبة المهمة كتَب الكثيرَ من المقالات التي تُناقِض ما جاء في كتاب: (الإسلام وأصول الحُكم)، وما جاء كذلك في كتاب: (مستقبل الثقافة في مصر)، اللَّذين يتغنَّى بهما أنصارُه ومريدوه والمتعصِّبون له، فقال في (مجلة الهلال) بتاريخ ديسمبر 1940: (فالدِّين الإسلامي كان وسيكون دائمًا أساسَ الحياة الخُلقية للأمَّة الإسلاميَّة، وقد كان في عصر طويل أساسَ الحياة السياسيَّة والعلميَّة لهذه الأمة أيضًا، وهو الآن وسيكون دائمًا أساسًا لهذه الحياة السياسيَّة والعلميَّة إلى حدٍّ بعيد). كما قال في (مسامرات الجيب) بتاريخ1947 متحدِّثًا عن أبطال الإسلام الذين عايشهم في إسلامياته: (وليست الخلوةُ إلى النفس شيئًا ميسرًا، وأكاد أعتقد أنِّي لا أظفر بها إلا نادرًا، وإنما الخلوة إلى النَّفس عندي هي أنْ أخلوَ إلى كتاب، فأُعاشِرَ قومًا لا عهد لي بهم، وقد عاشرتُ أثناء هذه الرحلة قومًا أُحبُّ عشرتهم أشدَّ الحب، وهم أولئك الذين نشَروا في الأرض نورَ الإسلام، وأقاموا فيها مجدَ العرَب).

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة العودة إلى أحضان العروبة والإسلام الممتدة من1952 إلى 1960:وفيها ظهرت تحوُّلات في فِكر طه حسين أكثرَ فأكثرَ نحو العروبة والإسلام، ومن أبرز هذه التحولات:تأكيدُه على حاكميَّة القرآن.والانتقال من الفِرعونيَّة إلى العروبة التي صاغَها الإسلام. وثناؤه على العلماء المجدِّدين الذين حاولوا أن يُعمِلوا عقولهم، ويُثبتوا شخصيتَهم، وينشروا النور من حولهم.... ثم قال: (... وانظر إن شئتَ سِيرة ابن تيمية وما أصابه ...)،وكذلك زيارته لأرض الحجاز 1955، وما حصَل فيها من أجواء إيمانية، وقد سُئل فيها عن إحساسه في هذه اللحظات،

وعن الدعاء الذي دعا به ربَّه؟ فردَّ قائلًا: (أُوثر أن يُترك الجواب على هذين السؤالين لِمَا بين الله وبيني من حِساب، وإنَّه لعسير. أرجو أن يجعلَ اللهُ من عسره يُسرًا).وعندما طلَب زيارة المسجد النبوي، وكان الطريق البري مُغلَّقًا لأجل السيول، صمَّم على الذهاب ولو بالطائرة – وهو لا يركب الطائرة أبدًا –، وعندما طلب منه رفيقُه أمين الخولي أن يؤجِّل الزيارة قال له: (لن أغفرَ ذلك لنفسي أبدًا). وقال عند الزيارة للمسجد النبوي: (صليت في المسجد النبوي، وشعرتُ بسمو رُوحي، ووددتُ أنْ لا أبرحَ المسجد، أتابع صلاة الظهر بصلاة العَصر، فلا أُريد غِذاءً ولا طعامًا ولا شرابًا). و كتابة كِتابه (مرآة الإسلام) 1959، الذي يكشف فيه عن ألوانٍ من إعجاز النظم القرآني. ثم ختَم بكتابه (الشيخان) 1960.